الغالي أن يكون لهم أبا فيما يكون على الآباء من واجب التهذيب والرعاية والارشاد ، ناصحا برفق حين يتحسن الرفق ، مؤدبا بعنف حين لا يجدى إلا الشدة والعنفوان .

* * *

وما دمت بصدد الحديث عن الرافعي في أهله ، فان واجباً عليّ أن أتحدث هنا عن شيء من (حب الرافعي) أراه يتصل بهذا الموضوع :

في فترة ما من حياة الرافعي — سأتحدث عنها بتفصيل أوفي فيما بعد — كان للرافعي هوى وغرام ، ووقع له في هواه مايقع للمحبين من ضرورات الحب ، ودافع نفسه مادافع فلم يجد له طاقة على المقاومة ، واحتال على الخلاص فما أجدته الحيلة إلا همّا على هم ، وكان حبه أقوى منه ، ولكن دينه وأخلاقه كانت أقوى من حبه . وقال لنفسه : ما أنا وهذا الحدث الذي يعترض طريقي ويغلبني على إرادتي ؟ إن في بيتي امرأة أحبها وتحبني — والحب عند الرافعي لا يأبى الشركة ! — وإن لها عليّ حقاً ليس منه أن يكون مني لغيرها نظرة أو ابتسامة إلا أن تأذن لي ! ماذا يكون من أمري وأمرها غداً أمام الله حين يطلب كل ذي حق حقه ؟ أأقول لها : نعم قد ضيعت حقك وأعطيت من قلبي الذي لا أملك لمن لا تملك ؟ ويلي ! إنها الخيانة والاثم والعار !

وذهب إلى زوجه فحدثها وحدثته ، ثم أفضى إليها بخبره وكشف لها عن نفسه ، ثم قال : وأنت يازوجتي هل يخفى عليك مكانك مني ؟ ولكن . . .

واستمعت إليه زوجته هادئة مطمئنة . . . ثم أذنت له . . .

وكتب الرافعي رسالته الأولى إلى صاحبته التي غلبته على قلبه ، وقرأت زوجته الرسالة وطوتها وأرسلت بها إلى صندوق البريد . . .

وجاء جواب صاحبته فقرأته زوجته كما قرأت رسالته ، وصار هذا دأبهما من بعد . . . لا ترى زوجته لها حقاً عليه إلا أن تعرف ، ولا يرى على نفسه في ذلك ملامة مادامت زوجته تعرف . . . !

وأنشأ هذا الحب طُرْفَتين في الأدب العربي تم بهما نقص العربية في فلسفة الحب والجمال ، هما كتاباً « رسائل الأحزان » و « السحاب الأحمر » ولكن . . . ولكن أحداً لم يقرأ القصة الأخرى . . . قصة الحب والوفاء والتضحية ، لأن الرافعي لم ينشرها فيما ألف من الكتب في فلسفة الجمال والحب . . . !

« سيدي بشر »

محمد سعيد العريان

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٨ —

الديانة الفارسية

لا ريب أن من يلقي على الديانة الفارسية نظرة فاحصة يأخذ بلبه ما يجده بارزا بين جوانبها من المبتدعات « الزرادشتية » التي يجزم بعض مؤرخي الحركة العقلية بأنها لم يسبق لها نظير في تاريخ الديانات القديمة ، إذ لا يعرف التاريخ قبل « زرادشت » مجدداً قلب الدين القديم رأساً على عقب وأحدث فيه أحداثاً جديدة إلا « أخناتون » الفرعون المصري الذي نادى بالتوحيد في وسط معمعان الوثنية والتعدد الطاحنين ؛ ولكن « أخناتون » في نظر هؤلاء المؤرخين لم يبلغ مرتبة « زرادشت » لأن دعوته كانت تجديداً سياسياً أكثر منها دينياً ، ولهذا قد فشل تجديده على أثر صعود خلفه على العرش ، وإذاً فزرادشت هو الفذ الأسبق في هذا التجديد

ولكن ليس معنى هذا أن « زرادشت » قد قطع كل العلائق بالديانة القديمة وأنشأ ديانته إنشاء كاملاً ، كلا ، وإنما هو قد أقر منها الشيء الكثير ، وهذا هو الذي يحدونا إلى أن نلقي على الديانة القديمة نظرة عجلى قبل أن نعرض للديانة « الزرادشتية »

الديانة قبل زرادشت

ليس عندنا من المصادر عن الديانة الفارسية السابقة على « زرادشت » القدر الكافي لإعطائنا عنها صورة واضحة تمكننا من تحليلها على الطريقة العلمية القيمة ، وإنما كل ما نعرفه في هذا الصدد هو أن نقوشاً أثرية يرجع تاريخها إلى القرن الرابع عشر قبل المسيح وجدت في الشمال الغربي من بلاد فارس ، ووجدت فيها أسماء آلهة هندية ثلاثة وهي : « ميثرا » و « أندرا » و « ڤارونا »

ولما كان من غير الممكن أن تصل هذه الآلهة الهندية إلى ذلك المكان دون أن تخترق البلاد الفارسية ، فقد استنتج بعض الباحثين ونخص منهم بالذكر الأستاذ « دينيس سوريه » أن للديانة الهندية أثراً عظيما على الفارسية الأولى . وقد ذهب غيرهم إلى ما هو أبعد من هذا ، فزعم أن « أهورامازدا » إله « زرادشت » هو محرف عن « أور روناشول » الإله الهندى العتيق ، ولكن هذه مغالاة شديدة من أصحاب هذا الرأى ، إذ النظريات العلمية لا يصح أن تبنى على مثل هذه التكهنات المستنتجة من التحككات اللفظية

ومهما يكن من الأمر ، فإن تأثر الفارسية بالهندية أمر مقطوع به ، إذ أننا نجد مثلاً فى الكتاب الفارسى المقدس « زند أفيستا » أسطورة تحدثنا عن « يما » أول إنسان[1] أنه أطعم أبناءه لحماً محرماً (ولعله لحم ثور) ليصيرهم خالدين ، وأنه قد فعل هذا نزولا عند نصيحة أحد الآلهة ، وقد ظلت هذه العقيدة فيما يظهر سائدة حتى جاء « زرادشت » فأعلن احتجاجه ضد هذه الخرافة وصرح بأن الخلود لا يمكن أن يتوقف على أكل لحم الثور إنما هو شئ معنوى يمنحه «أهورامازدا» لمن يستحقه بالفضيلة[2]

ومن هذه الأساطير أيضاً ما يحدثنا به « هيرودوت » من أن الملكة « أميتريس » حين صارت عجوزا أمرت بدفن أربعة عشر طفلاً من أبناء النبلاء أحياء ، ليكون ذلك قربانا عنها ، تقربها من الآلهة .

تمتاز هذه الديانة القديمة بأنها كانت تأمر بعبادة العناصر الأربعة : النار ممثلة فى كوكبيها العظيمين : الشمس والقمر ، والهواء والماء ، والتراب ، وبتقديس كل مظاهر الطبيعة ، وبأنها تأمر بضحية بعض الحيوانات كالثيران والكباش ، ولكن يجب أن يكون ذلك على يد جمعية مؤلفة من رجال الدين تنعقد خصيصاً للاشراف على الضحايا . وكانت بعض الحيوانات تمتاز بقداستها على بعض الآخر ، فكلب الماء مثلاً كان مقدساً إلى حد أن من يقتله يجب أن يعاقب بضربه عشرين الف عصا ، وكان هذا المسكين يموت غالباً قبل أن يستوفى هذا العدد ، غير أنه إذا نجا بمعجزة ، وجب عليه أن يشكر الآلهة على هذه النجاة ، وذلك بتقديمه عشرة آلاف قربان من السوائل ، وأن يقتل عشرة آلاف ضفدعة ، ولم تكن هذه الحماية مقصورة على كلاب البحر ، بل كانت القنافذ والكلاب البرية كذلك ، كما كانت الثعابين والنمل والضفادع على العكس من ذلك تماما .

وعندهم أن الميت يجب أن يدلك بالشمع ثم تعرضه جمعية رجال الدين للطيور والكلاب ، لتمزق جسمه وتأكل منه ما تشاء ، ثم يوارى الباقى فى التراب . وقد تطورت هذه العقيدة فيما بعد فتحولت إلى عقيدة عرض الأموات فى برج السكوت . ومن المحتمل أيضاً أن يكون الهنود الذين لا يزالون يعرضون جثث موتاهم لتمزيق الوحوش قد تأثروا بهذه الشعيرة .

وعندهم أيضاً أن الشعر والأظافر بعد فصلها من الأجسام الحية تصبح مدنسة ، وكذلك النَّفَسُ البشرى مدنس ؛ ومن عقائدهم كذلك أن الجثة البشرية قد تطهر إذا قطعت ومزقت أجزاؤها ثم مر أحد الناس بهيئة خاصة من بين هذه الأجزاء .

وعندهم أن زواج الأمهات والأخوات والبنات ليس مباحاً فحسب ، بل إنه مستحب وموصى به ، أما الزنى فهو عندهم جريمة كبرى .

لم تمنع عبادة العناصر الفرس من اتخاذ آلهة أخرى لكل واحد منها اختصاص محدد مثل « أناهيتا » إلهة الماء والخصوبة التى صوروها بعدة أشكال وبدلوا اختصاصاتها كثيراً والتى يظن بعض الباحثين أنها أثر من « إيستار » إلهة « بابل » القديمة لا سيما وإن شمال بلاد الفرس كان خاضعاً لاستعمار البابليين فى ذلك العهد .

كان بعض الشعب يعتقد أن « هاومو » — وهو اسم لشراب كحولى — هو اسم لشخصية بين الآلهة والبشر والبعض الآخر يعتقد أنه إله يجب أن يعبد ، وقد عبدوا هذا الشراب بالفعل ، ووضعوا عدة أناشيد ، للتغنى باسمه . وقد صرح الأستاذ « دينيس سواريه » بأنه لا مانع عنده من أن يكون لهذه الأناشيد التى تغنى بها الفرس القدماء فى عبادة الخمر أثر على رباعيات عمر الخيام التى جاءت بعد ذلك ببضعة عشر قرناً .

هذا كله خاص بعقيدة العامة وجماهير الشعب ؛ أما الخاصة فقد كانت لهم عقيدة أرقى من هذه العقيدة على نحو ما كانت الحال عند المصريين القدماء ، إذ تحدثنا آثار ملكية وجدت فى

---

(١) يلاحظ أن « يما » الذى هو أول إنسان عند الفرس ، هو نفس « يما » أول إنسان فى الديانة الهندية كما أسلفنا .

(٢) راجع . ج . ه . مولتون . (الزورواسترية الأولى) صفحة ١٤٩

مدينتي : « سوز » و « بيرسيوليس » أن كثيراً من الملوك كانوا يؤمنون بالالهين : « ميترا » و « أناهيتا » وغيرهما من آلهة الشعب ، ولكنهم كانوا يضعون على رأس هذه الآلهة جميعاً الاله « أهورا مازدا » الذي سنتحدث عنه في ديانة « زرادشت » ، ومما يلفت النظر في عقيدة الخاصة هو أن هذا الاله الرئيس كان عندهم غير مرئي وأن النار لم تكن إلا رمزاً له فحسب ، وأنه لم يكن له معبد خاص ، وإنما كانت جميع بقاع الأرض معابد له .

لقد ظل هؤلاء الملوك يعبدون « أهورا مازدا » عبادة حرة غير مقيدة بتعاليم نبوة « زرادشت » حتى آخر القرن الخامس قبل المسيح حيث اعتنقوا الديانة « الزرادشتية » وطبقوا كل طقوسها .

« الديانة الزرادشتية »

حياة زرادشت

يجمع أكثر الباحثين على أن « زرادشت » قد وجد حقاً وإن كانوا جميعاً لا يجرؤون على القول بأن لديهم أي برهان علمي يدل على وجوده ؛ وهم يجمعون كذلك على أنه وجد حوالي نهاية القرن الثامن قبل المسيح ، وإن كان قد شذت عن هذا الاجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية ، وهي شخصية الأستاذ « كليمان » الفرنسي الذي يرى أنه وجد في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد (١)

يحدثنا أولئك الباحثون أن تاريخ هذا الزعيم الديني مفعم بالأساطير الشعبية الغريبة التي لا يخلو منها شعب من الشعوب والتي رأينا صورة منها في تاريخ « بوذا » ؛ فمن هذه الأساطير أنه ولد ضاحكا ، رافعاً وجهه ويديه نحو السماء ، وأنه حدثت ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة ؛ ومنها أنه تحدى بعض مشاهير السحرة في عصره فحاولوا أن يهلكوه بكل ما أوتوا من علم وقوة ، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعاً . ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان ويأوي إلى الصحراء ، ليعتكف فيها مناجياً ربه بقلبه ولسانه ، وأنه كان يوحى إليه بوساطة رؤساء الملائكة ، وأنه عرج به إلى حيث الاله نفسه فصار أمامه ، وأنه سحر الملوك ببراهينه ، وأنه كان دائما على رأس الدعاية التي أسسها لدينه ، وأنه مات في إحدى الحروب الدينية التي كان يقوم بها تبعاً لأوامر شريعته ، إلى غير ذلك من الأساطير الفاتنة التي تنظمها الشعوب عادة ، لتحوط بها زعماءها أو تتخذها رمزاً لمستقبلها .

أما التاريخ فيحدثنا أن « زرادشت » نشأ في بيئة ريفية متواضعة لا تستطيع أن تحمي نفسها مما ينزل بها من غارات جيرانها ، ولهذا كان أكبر ما يشغل « زرادشت » في شبابه هو أن ينجو هو وأسرته من غزو القبائل الرحالة التي كانت تهدد تلك الجهات في ذلك العهد . ويحدثنا أيضاً أن أخلاقه الشخصية كانت على أسمى ما يمكن أن يكون في تلك العصور ، فقد رأينا آنفاً أنه عارض الدين القديم لحماية الأخلاق ، إذ أعلن أن الخلود لا يكون إلا جزاء للفضيلة ؛ وقد أعلن كذلك أن قتل أي كائن حي في الغزو والغارات المؤلفة لأجل السرقة والسلب هو من أفظع أنواع الجرائم حتى ولو كان هذا المقتول حيواناً ، ولكن التبعة في ذلك واقعة كلها على المعتدين لا على المدافعين عن أنفسهم . وعنده أيضاً أن أجل الغايات هي الخلود النفساني وإن كان السمو لم يمنعه من أن يعنى بالحياة الدنيا عناية فائقة إلى حد أن يفسح في أدعيته مكاناً عظيما لطلب متع الحياة من : مال وخيل وجمال فيقول « أنا أسألك أن تنبئني بالحقيقة يا « أهورا » هل أنت العدل حقاً ؟ وهل حقاً سأنال هذه المكافأة التي وعدت بها ، وهي عشرة أفراس وحصان وجمل ، وأيضاً الهبة المستقبلة التي وعدتني بها وهي النعيم والخلود » (١)

أهم مميزات الديانة الزرادشتية

قبل أن ندخل في تفاصيل هذه الديانة يجمل بنا أن نشير إلى أهم مميزاتها العامة التي تأسست عليها ، وهي :

(١) إن هذه الديانة أسست على فكرة خطيرة أحدثت في تاريخ الديانات هزة عنيفة لا عهد لها بها من قبل ، وهي أن جميع الآلهة المذكورة في تاريخ الديانات كانت آلهة محلية أي كان لكل شعب آلهته ، بل لكل مقاطعة آلهتها ، أو لكل قرية إلهها ، وأن كل التطورات التي أحدثها الزعماء الدينيون قبل « زرادشت

(١) راجع كتاب « ديانات العالم » للأستاذ « كليمان » صفحة ١٥٨ طبعة باريس سنة ١٩٣٠ .

(١) نقله الأستاذ « ميبه » عن كتاب « أفستا » في محاضراته الثلاث عن هذا الكتاب طبعة باريس سنة ١٩٢٥

كانت تتناول تغييرات داخلية كما أشرنا إلى ذلك حين مثلنا لك بأخناتون ، أما « زرادشت » فقد استطاع أن يطن فى جرأة أن « أهورامازدا » ليس إلهاً فارسياً ، وإنما هو إله الكون كله ، وأنه هو نبي تلقي الوحى من هذا الاله العالمي الذى ليس له شريك وإنما له خصم هو دونه فى الرفعة وهو « أهرمان » إله الشر الذى سينهزم على ممر الزمن وسينعدم جنده وأنصاره بانعدام الرذيلة من فوق الأرض .

(ب) إن هذه الديانة تمتاز عن غيرها من الديانات القديمة بأنها بنيت على أساس مبدأ تعميم الخير وإبادة الشر ، وهى ترى أن من أهم الوسائل الضرورية لتحقيق هذه الغاية هو تقوية النوع البشرى ونشر الخصوبة والعمران على سطح الأرض . ويلاحظ بعض الباحثين أنه وإن وجد الخير والعدل فى غير الديانة الفارسية من الديانات القديمة ، إلا أن تلك الديانات لم تتخذهما غاية لها كما فعل « زرادشت » ؛ فخصومة « أوزيريس » وشقيقه « سيت » لم تكن حرباً بين الخير والشر ، وإنما كانت خصومة سياسية اضطرمت نارها من أجل الاستيلاء على العرش ، وإن كان أصحاب هذا الرأي لا يستطيعون أن يجحدوا أن الحق والعدل قد فازا فى هذه الأقصوصة بأكبر نصيب ، ولكن هناك فرقاً بين كون العدالة ممثلة فى الأسطورة كما كانت الحالة فى مصر وكونها غاية لها كما هي الحال فى الديانة « الزرادشتية » .

أما فى بابل فالحالة أدهى وأمر ، إذ نلفى الآلهة هناك بعيدين كل البعد عن فكرة العدالة كما تدل على ذلك أسطورة الطوفان البابلى الذى نكبت به آلهة بابل بنى الانسان دون ذنب جنوه ولا جريمة اقترفوها ، وإنما كان بسبب نزاع قام بين أولئك الآلهة .

(ج) وحد « زرادشت » بين الإله « مازدا » وبين الخير توحيداً جعلهما اسمين لمسمى واحد ، فسبق أفلاطون إلى هذا المزج الفلسفى والأخلاقي العظيم . وبهذا أصبح الخير قلب الديانة الزرادشتية » الذي ينبض بحياتها ، وقد أعلن أن الخير سيعم الكون كله عند ما تسود الفضيلة وينهزم إله الشر « أهرمان » الذي هو العدو الأوحد لأهورا والذى هو دائم الحرب معه يعيننا بجنوده من أنصار الرذيلة والفساد ، والذى يجب على كل منا من أن يقوم بنصيبه من قتاله بإبادة جانب من جوانب الرذيلة

٩٠

يرى بعض العلماء أن تأسيس الديانة الزرادشتية على الفكرة من حيث هى ليس مميزاً لها ، وإنما المميز هو تأسيسها على فكرة الخير ، إذ كل الديانات الراقية : قديمها وحديثها قامت على مبادىء مختلفة ، فالبوذية مثلا أسست على مبدأ : الألم ، والمسيحية على مبدأ : الحب ، والإسلامية على مبدأ : التوحيد

ويعلق ذلك الفريق من العلماء على هذا الرأى بقوله : «ولكن الشعوب التى ظهرت فيها هذه الديانات لم تفهم تلك المبادىء العالية التى قصد إليها زعماؤها ، وإنما أحاطوها بسياج سميك من أساطير الوثنية الأولى التى بعثوها من مراقدها وأنزلوها من الاحترام العملى منزلة طغت على الغاية الأساسية للديانة ؛ فأنت إذا فتشت فى هذه الديانات الراقية بعد وفاة زعمائها وجدت ذلك ملموساً لا يحتاج إلى جدل ، فـ « بوذا » لم يتخيل قط أنه سيؤله ويعبد بعد موته ، ولو تخيل هذا فى حياته لانكسر قلبه حزناً وألما ؛ و « زرادشت » لم يتصور ألبتة أن الشعب سيرفعه بعد عشرين سنة إلى منزلة « أهورامازدا » ؛ والمسيح لم يدر له بخلد أن الشعوب التى اعتنقت ديانته ستتغالى إلى هذا الحد فى شخصيته البشرية ؛ ومحمد لم يكن يسمح من غير شك أن تدعو أمته قوماً من البشر للشفاء أو لقضاء الحاجات كشركاء لله الذى قضى نبيهم حياته فى النداء بتوحيده وإفراده بكل شىء .

أما ما تحاوله العقلية العصرية من تفسير هذه الديانات بما يلائم روح هذا العصر فهو فاشل أو قليل النجاح ، لأن عامة الشعوب لا تستطيع أن تتعقل تلك المبادىء السامية التى أتت بها هاتيك الديانات .

« يتبع »

محمد غنيم

اطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية الشهيرة